

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن الجن حين بعث ﷺ رسولهم محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرسا شديدا وحفت من سائر أرجائها وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئا من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ورحمته بعباده وحفظه لكتابه العزيز ولهذا قال الجن { وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا } أي من يروم أن يسترق السمع يجد له شهابا مرصدا له لا يتخطاه ولا يتعداه بل يحمقه اليوم ويهلكه { وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا } أي ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا وهذا من أدهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل والخير أضافوه إلى الله .
وقد ورد في الصحيح [والشر ليس إليك] وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان كما في حديث ابن عباس : [بينما نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ رمي بنجم فاستنار فقال : ما كنتم تقولون في هذا ؟ فقلنا : كنا نقول يولد عظيم يموت عظيم فقال : ليس كذلك ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء] وذكر تمام الحديث وقد أوردناه في سورة سبأ بتمامه وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بأصحابه في الصلاة فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء فأمن من آمن منهم وتمرد في طغيانه من بقي كما تقدم حديث ابن عباس في ذلك عند قوله في سورة الأحقاف : { وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن } الآية .

ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك ووطنوا أن ذلك لخراب العالم كما قال السدي : لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو دين ظاهر فكانت الشياطين قبل محمد صلى الله عليه وسلم قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا يستمعون ما يحدث في السماء من أمر فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم نبيا رسولا رجموا ليلة من الليالي ففزع لذلك أهل الطائف فقالوا : هلك أهل السماء لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب فجعلوا يعتقدون أرقاءهم ويسيبون مواشيهم فقال لهم عبد ياليل بن عمير : ويحكم يا معشر أهل الطائف أمسكوا عن أموالكم وانظروا إلى معالم النجوم فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك

أهل السماء إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة يعني محمدا صلى الله عليه وسلم وإن نظرتم فلم تروها فقد هلك أهل السماء فنظروا فرأوها فكفوا عن أقوالهم وفزعت الشياطين في تلك الليلة فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم فقال : ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها فأتوه فشم فقال : صاحبكم بمكة فبعث سبعة نفر من جن نصيبين فقدموا مكة فوجدوا نبي الله صلى الله عليه وسلم قائما يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن فدنوا منه حرصا على القرآن حتى كادت كلالهم تصيبه ثم أسلموا فأنزل الله تعالى أمرهم على رسوله صلى الله عليه وسلم وقد ذكرنا هذا الفصل مستقصى في أول البعث من (كتاب السيرة) المطول والله أعلم والحمد والمنة